الزبونية ودورها في النظم السياسية المعاصرة "دراسة حالة العراق"

م م خلود عبد الكريم خلف(*)

المقدمة:

يتم عادة وصف الزبونية على أنها أحد أشكال الفساد السياسي والاجتماعي، فضلًا عن كونها وسيلة معتادة لتسيير الأمور السياسية في الشرق الأوسط. وتقوم الزبونية بدورٍ كبيرٍ في تحديد شبكة التحالفات، وتدعم المصالح المشتركة بين تكتلات محلية، دولية ووطنية، إلا أنَّها تساهم في زيادة الصراعات والدسائس بين مختلف الفاعلين المتنافسين حول السلطان السياسي، ومن ثم ينتج السلوك السياسي من ممارسات تقليدية تغذيها العلاقات القرابية والعشائرية والقبلية، وعليه تعد الزبونية والريع وسائل وآليات تحكم، تؤثر في عمل المؤسسات العصرية الطابع (أحزاب، إدارات، جمعيات ...).

والزبائنية كشكل من أشكال الفساد السياسي والاجتماعي تخل بنظام الديمقراطيات المعاصرة، كما تعد أداة محبطة لتطلعات المساواة في الفرص، ومحددات المنافسة والرفاهية، وتعرقل سير عملية التنمية المستدامة؛ لذا يتم الأخذ به عالميًّا على أنه معطى أنتروبولوجيًّا لا يجب تطبيعه بمسايرته وعدم مقاومته، خاصة وأن محاوره التركيبية أصبحت تتعدى العلاقة مع الدولة على المستوى القطري عن طريق الأحزاب والبيروقراطية إلى ما يمكن تسميته بمحور العلاقات الاجتماعية على المستوى الدولي بتبعياته وزبونياته الجديدة، التي تربط بين المصالح السياسية والاقتصادية لبعض الدول المهيمنة، والمصالح الآنية لبعض النخب المحلية.

(*)مدرس اول تربية الرصافة الثالثة.

ولقد برزت العديد من المؤشرات التي تنم عن فقدان الثقة في الطبقة السياسية، وتعيد إلى الأذهان إشكالية الفساد السياسي في بعده الزبوني، باعتباره سببًا رئيسيًّا في فقدان الثقة، وكأحد أهم التحديات التي تواجه دعاة "الحكم الرشيد"، ومن ذلك انخفاض نسبة مشاركة المواطنين في الانتخابات (لا تكاد تفوق ٥٠ % في الكثير من الحالات). فضلًا عن الجدل الإعلامي والسياسي الدائر حول الفساد في الأنظمة الديمقراطية المعاصرة، وذلك بالتطرق إلى كيفية تمويل جمعيات المجتمع المدني والحملات الانتخابية السياسيَّة، ومدى ديمقراطية أنظمة تسيير الجمعيات والأحزاب السياسية وتسلط زعامتها، ومدى مصداقية القوائم المفتوحة في الانتخابات، وكيفية الوصول إلى السلطة.

ولا يعتد بعلاقة الزبونية إلا بتوفر أطراف العلاقة على خدمات قابلة للتبادل، بشكل يجعل كل طرف في أمس الحاجة إلى الطرف الآخر، وتعد هذه الخاصية، هي ما يجعل أفراد النخبة السياسية في أي دولة تكون أكثر حرصًا على امتلاك موارد وخدمات ذات رواج في سوق المنافسة حول النفوذ، خاصة في السوق السياسية.

وقد يكون طرفًا ثالثًا في تلك العلاقة، يطلق عليه لفظ "الوسيط"، ويأتي دوره كحلقة وصل بين الزبون والوجيه/ القطب، يدفعه كذلك إلـــــى أنْ يكونَ أكثر خبرة ومعرفة بالطرفين، وبكيفية اشتغال النسق برمته، بالإضافة إلى قدرته الإقناعية وخبرته ومصداقيته. ويتحكم شكل الدولة في درجة قوة العصبيات وطبيعة العلاقات الزبائنيَّة السائدة، حيث إنَّ وجود الدولة بشكلها المعاصر وحدوث التحول الحضري والتمازج الاجتماعي، أدَّى إلى تفكيك العصبيات التقليدية، ونشأ بدلًا منها التحزبات السياسية والاجتماعية الحديثة، ومن ثمَّ ظهور العصبية أو القبلية في صورة جديدة يطلق عليها "الزبائنية السياسية".

تحديد مشكلة البحث:

يعد تزايد وتنوع أعداد العلاقات الزبونية في العالم بصفة عامة، وفي العراق بصفة خاصة، وعملهم كوسطاء للمرشحين للانتخابات على اختلاف توجهاتهم، من أهم الأسباب التي تُؤدي إلى بروز قوتين تهدر جهدًا وزمنًا وثروات، يكلف الدول الكثير،

فضلًا عن كونها تمتلك التأثير الواضح في تعويد المجتمع على طرق تفكير تقليدي، واليقين بأنَّ النخبة السياسية لن تتغيرَ، حتى إنَّ ذلك شكل فكر الناخب العراقي، وختم عليه بختم التقليدية وأعاد إنتاجه، وبالتالي يعني ذلك استمرار نفس النظام مما جعل المجتمع العراقي في عزلة عنِ العالم المتحضر، وجعل النظام هشًّا وهامشيًّا وغير قادر على إيجاد الحلول للمشكلات المزمنة في المجتمع؛ مما دفع الباحثة إلى التساؤل:

١- ما هو مفهوم الزبونية السياسية؟ وما الطبيعة العالمية لها؟ وما هي أهدافها؟

٢- ما علاقة الزبونية بالنظام السياسيِّ؟

٣- ما طبيعة العلاقة بين الفساد والزبونية؟

٤- ما هي آلية الزبونية السياسية في تحليل المشهد السياسي العراقي؟

٥- ما هي أهم مظاهر الزبونية السياسية والاجتماعية في العراق؟

هدف البحث:

يتمثل الهدف الرئيسي للبحث في التعرف على الزبونية كأحد أشكال الفساد السياسي والاجتماعي، التي تعاني منها العديد من دول العالم النامية والمتقدمة على حد سواء، والتي تستشري آثارها الفسادية بصورة يسهل ملاحظتها في الدول العربية –ومنها العراق– وبالتالي الوقوف على الآلية التي تتغلغل بها العلاقات الزبونية في النشاط السياسي، بما يبرز أنشطتها الفاسدة، ويحد من فاعلية العملية السياسية وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

أهمية البحث:

يستمد هذا البحث أهميتها من خطورة الدور الذي تقوم به علاقات الزبونية السياسية والاجتماعية، في شيوع إدراك سلبي لدى غالبية أفراد المجتمع العراقي حول طبيعة سير العملية الانتخابية، وآلياتها الإعلامية والعلاقات الزبائنية التي تنطوي عليها، ومن ثم الجزم بأنَّ الجماهير لم تعد قادرة على إحداث التغيير في الواقع الاجتماعي؛ مما يزيد من فجوة المصداقية والثقة، التي أخذت تتسع بين العراقيين ونظامهم السياسي والنخبة الحاكمة، وهو ما يترجم في شكل بروز ناخب صوري وليس ناخبًا حقيقيًّا متطلع

للتغيير، وفي أفضل الحالات ينتج عن انتشار إنتاج ناخب تقليدي لا يستطيع الخروج من المنظومة المرسومة له، وبالتالي إبقاء الوضع على ما هو عليه.

منهج البحث:

أولًا: يتخذ البحث الأسلوب الاستقرائي والاستنباطي ، حيث يتم الاعتماد بشكل أساسيٍّ على معلومات مُستقاة مباشرة من الدراسات والأبحاث، والمصادر الأولية والثانوية القانونية والقضائية المتعلقة بهذا الموضوع.

ثانيًا: المنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على رصد عناصر الموضوع وتحليلها وإبرازها، وذلك في محاولة لبيان طبيعة العلاقة بين الزبونية والفساد، باعتبارها أحد أشكاله على المستويين السياسي والاجتماعي.

حدود البحث:

حدود موضوعية: تتمثل الحدود الموضوعية للدراسة في مناقشة الزبونية كأحد أشكال الفساد السياسي والاجتماعي.

حدود مكانية: تتمثل الحدود المكانية للدراسة في التطبيق على قياس ظاهرة الزبونية السياسية والاجتماعية في جمهورية العراق.

الكلمات المفتاحية: الزبونية – الزبونية السياسية – الفساد – النظام السياسي – العصبية والقبلية – الفعل الاجتماعي والسياسي – عامل القرابة – المشهد السياسي العراقي.

المبحث الأول: الإطار النظري حول الزبونية السياسية

أشارت دراسة **Nnanna** [١]، إلى أنَّ الفساد هو استخدام السلطة العامة لتحقيق مكاسب خاصة، وقد ذهبت الدراسة إلى حد إعلان أنَّ محاباة الأقارب (بما في ذلك المحسوبية الممنوحة للمتبرعين السياسيين / "الأصدقاء") تعد واحدةً من أسوء أشكال الفساد، هذا الفساد، وفقًا لـــ **Nnanna**، يفقر الأمم، يسبب الصراع، أو على

١- Nnanna, O. (2017) " Why nepotism is the worst form of corruption" available at: http://www.vanguardngr.com/2017/05/nepotism-worst-form-corruption/ .

الأقل يُؤدي إلى حدوث الانقسام الشديد وعدم الاستقرار، وقد اتخذت مسألة المحسوبية / الزبونية على محمل الجد (على الأقل من الناحية النظرية) في العديد من دول العالم. وسوف يتم تناول هذه المبحث على مطلبين ، يتم في المطلب الاول التعرض لمفهوم الزبونية السياسية والطبيعة العالمية لها وأهدافها. فيما يناقش المطلب الثاني ، نشأة مفهوم الزبونية وأبعادها المحلية والدولية.

المطلب الأول: مفهوم الزبونية السياسية والطبيعة العالمية لها وأهدافها

تعد الزبونية ظاهرةً اجتماعيةً واسعة الانتشار، ومنَ المهمِّ التمييز بين نوعين من الزبونية، وهما الأفقي والرأسي: الزبونية الأفقية تحدث بينَ الأقران، مثل شركاء الأعمال والأصدقاء والزملاء، إنَّ شكل الزبونية التي تم إلقاء اللوم عليها في إثارة الأزمة المالية الآسيوية هو أمر أفقيٌّ: فقد تم منح الائتمان الصغير بشكل مفرط من قبل المؤسسات المالية إلى العملاء المفضلين لديهم (أو المقربين)، في حين أنَّ الزبونية الأفقية تحدث بين الأقران، ويمكن أنْ تكونَ داخل المنظمة، فإن الزبونية الرأسية تقوم على علاقة متفوقة تابعة داخل المنظمة أو الدولة، وتنطوي الزبونية هنا على تبادل الرعاية إلى الأسفل مع الولاء الشخصي للأعلى.[٢]

ويشير المعنى الاجتماعي والسياسي المفهوم من مصطلح "الزبونية"، على ما يبدو أنَّ معناها أنَّها أدوات للتفتيت والإفساد، ويستخدمها القادة السياسيون، أو قادة العشائر، أو قادة الطوائف، وأصحاب النفوذ في إعادة إنتاج مصالحهم المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية مقابل النفع المادي.

وتشتق كلمة "الزبونية" لغويًّا، من كلمة (الزبن)، التي تعني حسب لسان العرب لابن منظور: الدفع والصرف وبيع الثمر على الشجر أو بيع المجازفة، ويقال: أخذت زبني من الطعام أي: أخذت حاجتي، فالزبونية إذًا، هي عملية الدفع والصرف والمجازفة لأخذ الحاجة، وهذا مقارب للاصطلاح بأبعاده الاجتماعية والسياسية، بمعنى أنَّها تعني المنفعة المتبادلة وتتضمن قضاء الحاجة، وبذلك تصبح الزبونية مرادفةً في مجتمعاتنا لمصطلح

-٢ Naresh Khatri & Eric W. K. Tsang , Antecedents and Consequences of Cronyism in Organizations , Volume 43, Issue 4 , Journal of Business Ethics , April 2003. pp 289 – 303..

الولائية، والإفساد، والاستزلام. كما أنَّ كلمة الزبونية يمكن أنْ تشتقَّ من الكلمة الإنجليزية (Clientelisme)، وهو مفهوم متخصص مترجم عن الكلمة الإنكليزية، (Client) ، وهي تعني التابع، وتشير إلى أنَّ شخصًا يحيا بحماية شخص آخر.[٣]

وتعرف الزبونية، على أنَّها الشبكة التي تتشكل حول شخص بيده سلطات ما، والتي تتقطع خيوطها حين تنقضي سلطته، ونجد مثالًا لها بمجموعة المنتفعين التي تلتصق بأصحاب المناصب، أو المجموعات المتضامنة التي تتشكل تحت مظلة المنافع والحماية المتبادلة والمحسوبيات، وزواج الأقارب والشلل الحاكمة، التي تدير الدولة لمصلحتها وحدها، وتعمق ثقافة الفساد حتى يصيرَ واقعًا مسلمًا به[٤].

وتعرف الزبونية في المجتمع العراقي بشكل عام، على أنَّها توزيع المواد، والنفاذ عن طريقها إلى مصادر السلطة الرمزية (الدولة والدين) من خلال آلية مستندة إلى الولاءات الشخصية، التي يتم نسجها عبر المؤسسات القائمة، وهذه الآلية ليست بمؤسسية بحد ذاتها، كما أنَّها ليست حكرًا على أبناء عشيرة أو طائفة بعينها. وبتعبير مختصر فأفضل ما يقال للتعبير عن الزبونية هو (خذ من هناك وأعط هنا).[٥]

وعليه، فإنَّ تعريفنا للمحسوبية يعتمد على مفهوم الولاء المتصور، والذي له بعدان رئيسيان، هما العاطفي والسلوكي، وينشأ البعد العاطفي للولاء عن امتنانه الحقيقي. بما أنَّ العواطف غير مرئية، فيما يتم تقييم الولاء من خلال البعد السلوكي، وفي الحالات التي يكون فيها الولاء سمة ذات قيمة عالية، يميل الأفراد إلى إظهار سلوك مخلص من أجل الحصول على تقييمات مواتية ومنافع شخصية.

---

[3]- منير البعلبكي، المورد، دار العلم للملايين، ١٩٨٧. ص ١٨٤.

[٤] أوليفيه روا، الزبائنية والمجموعات المتضامنة: هل هم من بقايا الماضي أم يشهدون نشأةً جديدةً؟ مرجع سابق. ص ٣٦٣ – ٣٧٨.

[٥] صلاح حسن الموسوي، الزبونية السياسية في العراق، جريدة المثقف، العدد: ٢٣٠٦، ٢٨ ديسمبر، ٢٠١٢. ص ٣.

■ أهداف الزبونية:

معـــززًا بالتركيبـــة الطائفية المبنية على شبكة منَ العلاقـــات الزبائنيـــة المترســـخة نتيجـــة لطبيعـــة التحالفـــات، وواقـــع الحياة السياسية التي تتحكم فيها معطيـــات سياســـية – اجتماعيـــة – طائفيـــة – مناطقيـــة ومرتبطـــة بالحياة السياسية، ومن ثم يتمُّ الاعتماد على الزبونية، بهدف إنشاء الولاء والتضامن الجماعي ودعمه وضمان استدامته، من خلال إقامة أو تدعيم روابط شخصية (بالمصاهرة مثلًا)، أو بإثارة النزاعات القبلية والمذهبية واللغوية والسياسية والمهنية، أو باستمالة الزعماء، وقادة الرأي في الشأن الاقتصادي والإعلامي.[٦]

كما تمثل العلاقات الزبونية إحدى القنوات الهامة، التي تؤدي دورًا لا يستهان به في تقوية النفوذ، خاصة بالنسبة للأفراد المتنافسين حول السلطة السياسية، سواء على المستوى المحلي أو الوطني، فالعلاقات الزبونية أو علاقات الاستزلام، تعمل في اتجاهات متعددة، وتضمن للفرد التحكم في مجموعة من الموارد، وأحيانًا تكوين قاعدة من الأتباع الذين يكسبونه شهرة ويؤمنون له الموقع، وتخترق هذه العلاقات بشكلٍ واسعٍ مختلف البنى والمؤسسات بالمجتمعات التقليدية.[٧] ويمكن حصر المحاور التي يكون لها دورٌ واضحٌ في تكوين العلاقات الزبونية، كمعطى أنثروبولوجي وسياسي عالمي، فيما يلي:[٨]

١– تبادل المنافع.

٢– العلاقات الأسرية (الجهوية).

٣– تبادل رمزي بدافع أيديولوجي[٩].

٤– الاشتراك في السياسة المحلية (البلدية).

---

[٦] فضيل دليو، آراء: الزبائنية السياسية والاجتماعية في عصر الديمقراطية، مرجع سابق. ص ١٨٤ –١٦٩.

[٧] عبد الرحيم، حافظ، الزبونية السياسية في المجتمع العربي: قراءة اجتماعية – سياسية في تجربة البناء الوطني بتونس، مركز دراســـات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه، بيروت، ٢٠٠٦. ص ٥٩.

[٨] Gonzalez Alcantud , Ibid..

[٩] داخل الشبكة الاجتماعية ، سواء كانت علاقات اسرية او صداقة او جوار ، يكون قوامها المصالح المتبادلة.

٥- إقامة علاقة مع الدولة على المستوى القطري عن طريق الأحزاب والبيروقراطية.

٦- الاستفادة من العلاقات الاجتماعية على المستوى الدولي بتبعياته وزبونياته.

- **الطبيعة العالمية للزبونية:**

تنطوي الطبيعة العالمية للزبونية على عدة معاني، لعل أهمها، هو مفهوم الشبكة الاجتماعية، كقاعدة تبنى عليها العلاقات بين الأصدقاء السياسيين، وهو المفهوم الذي يشار إليه على النحو التالي، أنَّ الشبكة الاجتماعية منَ الناحية البيانية والتخطيطية تشبه دائرة اتصالية، تحدد كيفية يقوم بعض الأفراد الذين تربطهم علاقات اجتماعية، بالتواصل فيما بينهم بطريقة معقدة، ولكن دون ذكر كيف يجب أن يتواصلوا، وذلك على افتراض وجود قنوات اتصال أسرية/ اجتماعية يمكن استعمالها بطريقة أو بأخرى من قبل الأفراد، حيث إنَّ الشبكة الاجتماعية، هي أكثر فعالية، وتكون الرسائل فيها عبارة عن صفقات، والتي تتم بين أفراد خاصين.[١٠]

المطلب الثاني: نشأة مفهوم الزبونية وأبعادها المحلية والدولية

تأتي الزبونية من الكلمة الإنجليزية **crony**، التي نشأت كعملاق من جامعة كامبريدج عام ١٦٦٠. كتبت في الأصل على أنَّها **chrony**، واستندت إلى الكلمة اليونانية **khrónios**، وهذا يعني "منذ فترة طويلة"، ويبدو أن **Crony** كان يقصد به "صديق منذ أمد بعيد".[١١] ظهرت الزبونية حوالي عام ١٨٤٠، وكان معناها الأولي "القدرة أو الرغبة في تكوين صداقات"، وقد بدأ استخدامات في اللغة السياسية عندما اتهمت إدارة ترومان في عام ١٩٥٢ بتعيين أصدقاء في مناصب حكومية بغض النظر عن مؤهلاتهم، وصف صحفي في جريدة نيويورك تايمز هذه الممارسة بأنها محسوبية أو زبونية؛ لذا قام بتعديل معنى الكلمة.[١٢] بعد ذلك، تم تدمير حيادية وبراءة الكلمة، مع

---

(10) Jeremy Boissevain , friends of friends: network , manipulators and coalitions , pavilion series: social anthropology , Oxford Blackwell , 1975. P. 25. .

(11) Husted, B. W. , 'Wealth , Culture , and Corruption , Journal of International Business Studies 30 , 1999. p. 339 – 360..

(12) Economist , 'Asian Values Revisited – What Would Confucius Say Now?', 348(8078) , 1998. P. 25 – 27.

هذا التغيير في المعنى في المحسوبية، غالبًا ما ينطوي المحاباة على إحساس مهين بالصداقة مع وجود أثر للفساد السياسي أو المعاملة التفضيلية حوله.[١٣]

كما ترجع أصول هذا المفهوم إلى الفكر السياسي النظري الفرنسي المقارن، ويدور حول أداء بعض المصالح الفئوية، ففي فرنسا خلال الفترة من (١٨٧١-١٩٤٠) لوحظ انتشار الزبونية، وأنَّها جاءت موازية لامتداد حق التصويت، ويرى آخرون أنَّ الزبونية مرتبطة بظواهر مصاحبة لها، مثل: تسويق الانتخابات والسمسرة الانتخابية، وأعمال الروابط العائلية والاجتماعية، ويعتبر البعض أنَّ المنافسة الديمقراطية، بما تفرضه من دأب ومثابرة للحصول على التأييد، وما تتطلبه من روابطٍ مبنية على الوفاء والإخلاص، يقابلها منطق آخر أساسه العطاء والإغراء، ويعمل على شخصنة العلاقة السياسية والابتعاد عن عالم المواطنة.[١٤]

أمَّا الأصول الحديثة للزبونية، فيعود منبتها إلى الجامعات البريطانية ثم امتدت إلى الجامعات الأمريكية، وكانت معظمها حتى سبعينات القرن العشرين ذات طابع الاجتماعي الإنساني، يركز على المفهوم العلاقات الشخصية والبنيوية في المجتمع وتأثيرها على الوظائف الحكومية في كل من الدول النامية والمتقدمة. أما حديثًا ومع ندرة ما يكتب عنها قياسًا لمفاهيمٍ أخرى مثل الفساد والمحاصة، فإنَّ عرضها وتحليلها يعتبر سطحيًّا بالمقارنة مع خطورة نتائجها.[١٥]

ولما كان ترويج المفاهيم مثل الزبونية والمحسوبية وعلاقتهما بالفساد الاجتماعي والاقتصادي، يشير إلى وجود خلل في العلاقات بينَ الفاعلين الاجتماعيين، ويكشف الانحرافات التي تطاول السير العادي للمؤسسات ولسلوكيات الفاعلين الاجتماعيين ولممارساتهم، فإنَّ تناولها كموضوع للدراسة السوسيولوجية يقتضي إبعادها عنِ الخطابات اليومية المتداولة، وإخضاعها إلى التحليل العلمي الدقيق،

---

[13] (Naresh Khatri & Eric W. K. Tsang , Antecedents and Consequences of Cronyism in Organizations , Volume 43, Issue 4 , Journal of Business Ethics , April 2003. pp 289 – 303..

[١٤] سارة بن نفيسة & علاء الدين فرحات، الانتخابات والزبائنية السياسية في مصر- تجديد الوسطاء وعودة الناخب، ترجمة: سامية رزق، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، القاهرة، ٢٠٠٥. ص٢٧٠.

[١٥] صلاح حسن الموسوي، الزبونية السياسية في العراق، مرجع سابق. ص ٣.

تحليل لا تعود فيه الـــزبونية، مثلًا، كتعبير عـــــن عـــلاقة سياسية كما تبدو للحس المشترك، بـــــل باعتبارها علاقة لها جذور اجتماعية تخترق البنى، وتغذيها أطراف تتبادل المصالح، وتوجه فعلها وفق إستراتيجيات تحافظ من خلالها على تلك المصالح، وتعيد من خلالها إنتاج علاقات الهيمنة والتبعية في إطار تقسيم محكم للأدوار، واستحواذ على قنوات النفوذ والسلطة.[١٦]

- **الأبعاد المحلية والدولية للزبونية:**

١- البعد المحلي للزبونية:

يتمثل البعد المحلي لعلاقات الزبونية في وجود الجمعيات والنقابات والأحزاب، التي تكون عادةً متمحورة حول رجل أو مسمى ديني أو مناطقي أو تاريخي. وتتعلق بهدف تجنيد جمهور معين أو ضمان وجود إعلامي شكلي يتبعان لنظام يسعى إلى كسب المشروعية، وعلى استعداد لوضع زعيمٍ واحدٍ من تلك التنظيمات، أو بعض رموزها في مراكز المنتفع، حتى يتمكنَ من إعادة توزيع ما يحصل عليه من منافع، ويدعم الفريق الذي أنشأه، جدير بالذكر أنَّ أغلبَ الأحزاب السياسية المعتمدة، تشهد انشقاقات وتوترات داخلية حقيقية أو مفتعلة، وغالبًا ما تدور النزاعات القانونية داخل هذه الكيانات حول التلاعب بالمال، أو بالعقار الممنوح في إطار دعم الدولة السخي للنشاطات الحزبية.[١٧]

٢- البعد الدولي للزبونية:

هناك علاقة وثيقة بين علاقات الزبونية وجود الشبكات الاجتماعية الدولية، والتي تتشكل بفعل الدونية البنيوية، أو عقدة التبعية التي تستشعرها المجتمعات بعد حصولها على الاستقلال، وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته المعروفة، تظهر نتيجة ذلك توجهات لنخبٍ محلية لارتباطات وعلاقات دولية، وتنعكس بدورها على الزبائنية المحلية؛ مما يُؤكد وجود بعد دوليٍّ وإقليميٍّ بتشكيلها يعتمد على المصالح والعقود الدولية، فتشكل

---

[١٦] عبد الغني شفيق، النخب المحلية والعلاقات الزبونية: دراسة في بعض آليات إعادة إنتاج النفوذ بالمجال القروي المغربي، مرجع سابق. ص١٤١-١٥٧.

[١٧] فضيل دليو، آراء: الزبائنية السياسية والاجتماعية في عصر الديمقراطية، مرجع سابق. ص ١٨٤ - ١٦٩.

بؤرة للفساد الذي يكون أكبر من حصره بحقيبةٍ مالية أو رشوة، ولكنه يتمثل بأشكالٍ مختلفة منها تشكيل نخب مؤثرة موالية للقوة الخارجية الضامنة لبقائهم، ومنها التغطيات الإعلامية، التي تمثل الزبونية الإعلامية السياسية التي تروج لهم، والمنح الدراسية السخية للموالين لهم، تمويل منظمات وجمعيات، واستخدم لتنفيذ ذلك مزدوجو الجنسية.[١٨] كما في حالة العراق حيث معظم السفراء والوزراء ومسئولين كبار في الدولة العراقية هم مزدوجو الجنسية (عراقي – أمريكي)، (عراقي – بريطاني)، (عراقي – إيراني)، وذلك لتكريس الهيمنة والتبعية، وهذه تُسمى بـــ (الزبونية الدولية)، ويتضمن البعد الدولي للزبونية أيضًا عمل الجمعيات والمنظمات المحلية داخل المجتمعات، وهو ما يعبر عنه بالتداخل والثنائية بين (الأحزاب السياسية – المنظمات الاهلية). وفي بعض الحالات، يفوق أعداد المنظمات أعداد الأفراد المنتمين إليها، وهي أصلًا واجهات تعمل لصالح أحزاب أو جماعات سياسية تمول من قبل جهات إقليمية أو دولية، مثال ذلك: عملت في العراق منظمات غير عراقية تعمل لصالح دولها، وتعد هذه من أوضح أشكال وصور الزبائنية الدولية في العملية الانتخابية حيث إن القادة لا يتم العثور عليهم بالانتخاب، بل يتم صناعتهم من قبل العلاقات الزبونية. [١٩]

وتقع الزبونيات المعاصرة في العراق، على سبيل المثال: في هيئة الطلبة والأكاديميين والمثقفين. حيث قد ارتبط تشجيع الدراسة في أمريكا عبر مشاريع مختلفة «كمشروع فولبرايت»[٢٠]، الذي يطبق في العراق حاليًا، ، ويدخل من ضمن ما يُسمى بالأبعاد الدولية للعلاقات الزبونية.

---

[١٨] منى محمود علي، القوة الناعمة والزبائنية الاجتماعية والسياسية إعادة إنتاج الناخب التقليدي العراقي، مجلة مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية، الجامعة المستنصرية، الإصدار: ٤٦، ٢٠١٤. ص ٢٦ – ٥٢.

[١٩] جوزيف س. ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة: محمد البيجرمي، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٧. ص ١٨.

[٢٠] التعريف بمشروع فولبرايت، هو أحد البرامج العريقة للمنح الدراسية حول العالم، وقد أطلق البرنامج عضو الكونغرس الأميركي الراحل، السيناتور وليام فولبرايت عام ١٩٤٦، ومنذ سنوات يعمل البرنامج، على تمكين الطلبة العراقيين لمواصلة دراساتهم العليا لنيل شهادة الماجستير أو الدكتوراه، وهو مشروع للتبادل العلمي والتكنولوجي من خلال فكرة إنشاء المكتبة الإلكترونية العراقية الأمريكية والمرتبطة بالكونغرس بشكلٍ مباشرٍ، والتي تمكن الكثيرين منَ الاطلاع على آلاف الكتب والمقالات والبحوث في شتَّى مجالات البحث العلمي.

المطلب الثالث: افتراضات العلوم المختلفة حول الزبائنية

ظلت الدراسات حول قضية الزبونية، حتى حقبة السبعينات، ذات طابع أنثربولوجي خالص، وبالرغم من تواضع مكاسبها النظرية، إلا أنَّ تحليلاتها العلائقية تميزت بعمقها، وذلك من شأنه المساهمة في فهم ظاهرة الزبونية وبنيتها، خاصة في المجتمعات النامية أو المتخلفة، وبالنسبة للدراسات السياسية المتعلقة بقضية الزبونية، فهي حديثة وتحليلاتها سطحية نسبيًّا، فمعظم الدراسات الغربية في هذا الشأن تكتفي بالتقييم الأخلاقي لمظاهر الزبونية في المجتمعات النامية، ولا تتعمق في التحليل السوسيولوجي، الذي يوسع من دائرة أبعاد هذه الظاهرة وممارساتها التي تخرجها من حيزها الأنثروبولوجي ومجالها الاجتماعي الريفي / المحلي إلى المجال العالمي.[٢١]

وبالرغم من ذلك، نجد أنَّ مصطلح الزبونية أصبح له بعدٌ عالميٌّ، يتضمن مصطلحات معينه، منها: شبكة العلاقات / الرابطة الأسرية / الرابطة الإقليمية أو المناطقية، وهناك عدد من الانتقادات العامة، التي وجهت لبحث قضية الزبونية من الناحية السوسيولجية، على رأسها ربط الزبونية بحالة تطورية ريفية / متخلفة، أي: الربط بين الزبونية وآثار التخلف (مثال ذلك:ما ذكرته دراسة "Safina,2015"[٢٢] ، أن استمرار تقدم المحسوبية، يؤدي إلى «هجرة العقول» من روسيا، مما يعرض التنمية الاجتماعية والاقتصادية للخطر)، بل ذهبت بعض الدراسات أيضًا إلى نفي وجود الزبونية، خاصة على المستوى السياسي في الدول المتخلفة، وقد قوبل هذا الانتقاد بالتأكيد على أنَّ الزبائنية ظاهرة سياسية واجتماعية موجودة، ولكن ممارستها عالمية وليست حكرًا على مجتمعات بعينها، وأنه لا يمكن حصرها في التفسير الأحادي المرتبط بجانب أحادي مرتبط بفكر الموارد المحدود، أي: تفشي الفقر وقلة فرص الترقية الاجتماعية، بل يمكن أن تنتجَ أساسًا من ضعف الوازع الديني أو الأخلاقي، أو عدم شفافية طرق التسيير والتنظيم،

---

(21) Luigi Graziano , A conceptual framework for the study of clientelism , Ithaca , NY , center for international studies , Cornell University , 1975. p. 1.

(22) Dinara Safina , Favouritism and Nepotism in an Organization: Causes and Effects , Volume 23, 2015. P: 630-634 . https://doi.org/10.1016/S2212-5671(15)00416-5 .

وهو ما يدفع بالفاعلين الاجتماعيين نحو اللجوء إلى آليات من شأنها أن تخرقَ الأنظمة غير الشفافة والأحادية التوجه، فتسود العلاقات الزبونية.[٢٣]

المبحث الثاني: العلاقة بين الفساد والزبونية في النظم السياسية المعاصرة

يعد كل من الفساد والزبونية وجهين لعملةٍ واحدةٍ في كافة الأنظمة الديمقراطية المعاصرة، خاصة في تلك الدول المنتقلة حديثًا من النظام المركزي إلى نظام التعددية السياسية وحرية السوق، وفي الحالة العراقية أشرفت قوات الاحتلال على نمط جديد وواسع من الفساد اعترفت به الدوائر العليا في واشنطن عبر لجان التحقيق المختصة بتقصي أثر (٦,٦) مليار دولار اختفت من أصل الأموال العراقية التي كلفت الولايات المتحدة بإدارتها في العامين ٢٠٠٣-٢٠٠٤. وبعد خروج هذه القوات استمرت العلاقات الزبونية تحكم جميع مؤسسات البلاد؛ بسبب عدم احترام القوانين، ومنع أجهزة الرقابة من ممارسة عملها.

المطلب الأول: علاقة الزبونية بالنظام السياسي وأنماطها

عند مناقشة قضية الزبونية السياسية، فإنَّه ليس المهم التعرف على طبيعة العلاقة الزبونية، بقدر ما هو ضروري التعرف على طبيعة شبكات الزبونية والمنتفعين، وعلاقتهم بالدولة، وقدرتهم على السماح أو عدم السماح لدولة حديثة بأداء وظائفها، بما يجعلها تجمع بين بقايا المجتمع التقليدي، وعلامات التحول إلى دولة حديثة متطورة، وهناك عددٌ منَ المحاور التي تشترك في تكوين الزبائنية، كمعطى أنثروبولوجي بتبادل المنافع والموارد، من خلال العلاقات الاجتماعية والمناطقية في الحياة السياسية على المستوى المحلي، أو بدافع التبادل الرمزي الأيديولوجي اجتماعيًّا، فهي إذن تستعمل لتحقق الولاء الاجتماعي ودعمه وإدامته من خلال تدعيم علاقات شخصية، أو إثارة التعصبات القبلية أو المذهبية أو الغوية أو حتى المهنية، مع استمالة زعامات وقادة رأي وإعلاميين، وتتمثل أهم أنماط الزبونية، فيما يلي:

---

(23) Gonzalez Alcantud , Ibid..

١- الشبكة المعاونة البحتة (وهي شبكات اجتماعية تهدف الى تحقيق مصالح متبادلة)، وتتشكل حول رجل يتمتع بسلطةٍ ما، وتتفكك بزوال السلطة، أي: أنها تدوم فقط مدة بقاء منصبه.

٢- المجموعات المتضامنة، غالبًا لها أهداف موحدة، وتتمثل في العصبيات التقليدية مثل بالقبيلة والعشيرة والمذهب والقرية... وغيرها. وهي تمثل الشكل التقليدي من الزعامة أو القيادة في العمل السياسي للمجموعات القبلية، قبل نشأة مفهوم الدولة.

٣- العصبيات الحديثة الاجتماعية والسياسية (أحزاب ونقابات وجمعيات ومنظمات تابعة اجتماعيًّا..)، ولا يكون لها وجود سابق على الدولة، أو بالأحرى تكتسب قوامها بوجود الدولة، وتنطلق من حيزٍ سياسيٍّ حديث ــ وتعمل بعد ذلك بقيادة مجموعة متضامنة وفقًا لأساليب العلاقات الشخصية، وهي تكون متطابقة مع مفاهيم العصبيات التقليدية، إلا أنَّها تختلف في مصطلحاتها، المتمثلة في: زواج / أقارب / زبونية / محسوبية، وتشكل بذلك عصبيةً حديثةً تدير شئون السلطة السياسية لتحقيق مصالحها.[٢٤]

وفيما يخص الشبكة المعاونة البحتة في العراق، فإنها تكون باستيلاء بعض الجماعات على سلطات الدولة، بهدف العودة إلى التقاليد في صورة نظام الدولة الحديثة، وكون هذا النموذج مستوردًا، لم يفلح في مد جذوره في العراق، مثال ذلك، يخضع الجيش العراقي لقيادة هيئة من الضباط، تعبر عن مجموعة متضامنة، أقلية وتقليدية، راهنت على الدولة الحديثة؛ كي تعدلَ لصالحها الخريطة السياسية التقليدية، وتعد هذه المجموعة، هي همزة الوصل بين بنية من بني الدولة، وأهمها: المؤسسة العسكرية (الجيش)، وبين كيانات تقليدية مجزأة (أقليات عرقية ودينية).[٢٥] أي: أنَّ هناك مجموعة متضامنة، عشيرة أو

---

[٢٤] أوليفيه روا، الزبائنية والمجموعات المتضامنة: هل هم من بقايا الماضي أم يشهدون نشأةً جديدةً؟ مرجع سابق. ص ٣٦٣ – ٣٧٨.

[25] Michel Seurat , L'Etat de bartarie , seuil , Paris , 1989. P. 13..

أقلية على الأغلب، تحتكر الدولة وتتخذ منها أداةً للاستغلال الاقتصادي للمجتمع، وتعيش على النهب الخارجي المباشر.

وعلى العكس منها نجد العصبية الحديثة، والتي تجسد عودة روح الانتماء إلى فئات مهنية معينة، بناء على وجود الدولة وعالمية الأسواق الاقتصادية والمالية، ومن ثم فهي علاقة تجسيد تضامن تقليدية في حيز حديث، مثال ذلك، القرية التي يأتي منها الفرد، وعلاقات الزواج والمصاهرة، أو ما شابهه.[٢٦]

ومنَ المعروف أنَّه تم ربط الزبائنية سوسيولوجيا، بالطريقة التطورية الريفية المتخلفة، والسبب في ذلك يكمن في الربط بين الزبائنية والتخلف، ضمن إطار التطور الوظيفي الكلاسيكي، كما لم نجدْ في أيٍّ من تفسيراتها ربطًا بالفقر أو قلة الفرص في مجالات الحياة، وهذا ما يتعارض معَ الواقع الموجود في المجتمع العراقي، فالزبونية قبل كل شيء مفهوم أنثروبولوجي، غير أنَّه لم يتمَّ تناوله كظاهرة سياسية، بل أشير إليها على أنَّ علاقات (الزبونية) تمارس في المجتمعات الأكثر تخلفًا، وتم الاعتداد بها كعجز ديمقراطي، خاصة في المجتمعات العربية –ومنها العراق–، حيث يدخل في تفاصيلها البعد الثقافي والديموغرافي مع تبريرات للتحول الديمقراطي الذي لا بد له أن يمرَّ بالصور التقليدية أولًا.

ويمكن اختصار المشهد السياسي في أي دولة في العملية الانتخابية، باعتبارها عماد العمل السياسي، ومن ثم يمكننا تحليل العلاقة بين الزبونية والناخب نظريًّا، تتقاسم الانتخابات خصائص الديمقراطية بين ناخب ومنتخب، وما هو جوهري في كل منهما من معنى، ووصفًا على أساس ما هو صحيح أو خاطئ، أو إلى فائدته أو قلة فائدته، متوازن وغير متوازن، وواقعًا بسلسلة المراتب تندمج كل منها مع المنافع ودرجة تحقيقها، وهنا ينبغي تحقيق التوازن عند اللحظة الافتراضية التي يسميها «نقطة الصفر»، وهي فترة التغيير في الثقافة أو المجتمع (الانتخابات والخيارات الديمقراطية)، وهي اللحظة الفاصلة بين بنائين توجب نظرة وظيفية، فالبناء السابق المبني على الولاءات

[26] (Dale F. Eickelman , the middle east: an anthropological approach , Englewood cliffs , N. J. , prentice – hall , 1981. p. 197..

الأولية متوازن ومستقر، والمبنى الثاني هو التغيير ويعني اضطراب التوازن (اختيار مرشحين آخرين دون الاهتمام بالروابط القرابية أو الطائفية) المؤدي إلى اندثار ثقافة البناء الأول المتوازن، هنا تستخدم الزبونية رموزها وأدواتها، وبما يستوجب الحفاظ على التوازن والإبقاء على الحالة البنائية الأولى المستقرة، وهي الصيغة التي تسترضي الناخب التقليدي (أو تنتجه)، وتقنعه بأنَّها ضمانة لتحقيق حاجاته، وتظهر الزبونية بشكل تلقائيٍّ من داخل المجتمع؛ لذلك كان الاهتمام بإعادة تركيب الماضي، حيث إنَّ التغيير لا يمحو أثر البنيان التقليدي للعصبية، بل يبقيه دائمًا تحت ظواهر السطح مؤثرًا في التفاعل والاتصال.[٢٧] وعمليًّا تؤكد الأحداث محدودية حرية الناخب، والمحصورة فعليًّا بين واقع يعتمد على نظام المعرفة والقيم، تلك التي يستخدمها المرشح وزبونيته بحملته الإعلامية، وفيما يتعلق بالواقع البشري العراقي فقد تأخر كثيرًا، ولم تتمكن من امتلاك الكلمة الأخيرة في صراع الكتل المتنافسة، حيث إنَّ بقاء واستمرار عمل وتأثير الرواسب الثقافية أو بقايا الماضي أو المخلفات، يعود لاكتسابها معنى جديدًا ووظيفةً جديدةً، ومن ثم يعتقد أنَّ بعض الظواهر الثقافية والاجتماعية لا يمكن أن تستمرَّ بعد انتهاء وظيفتها، وأنَّ هذه المخلفات ليست إلا ظواهر وظيفية وأنَّ الدور الذي تلعبه يعبر عن المحتوى الثقافي الذي توجد فيه.[٢٨]

المطلب الثاني: تأثر الديمقراطية المعاصرة بالزبونية

لقد اعتبر مالك بن نبي، أنَّ الزبونية تعد ظاهرةً مرضيةً في المجتمعات، وتزداد طرديًّا مع تزايد درجة الفراغ الاجتماعي الناتج عن ضعف الوازع الديني أو الأخلاقي، حيث أصبح الفرد لا يجد نفسه، بمجرد خروجه من دور إلى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن ثمَّ لا يجد الإطار الضروري الذي ينقذ استقلاله الأخلاقي، أي: أنَّ المثلَ الأعلى المشترك غائبٌ عمليا.[٢٩] فهي بذلك تعد فسادًا ينخر جسد الديمقراطيات

---

[٢٧] علي ليلة، النظرية الوظيفية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الرواد والقضايا، جامعة عين شمس، ٢٠٠٨. ص ٣٠.

[٢٨] كامل عبد المالك، ثقافة التنمية – دراسة في أثر الرواسب الثقافية على التنمية المستدامة، دار مصر المحروسة، ٢٠٠٧. ص ٢٣.

[٢٩] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع– شبكة العلاقات الاجتماعية، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦، ط ٣. ص ٥٧.

المعاصرة لا سيما الديمقراطية في عصر العولمة، فاليمين يعتبرها أمرًا طبيعيًّا يجب أن يوظفَ لحسن تسيير المجتمع واليسار يحاربها عالميًّا ويتعايش معها محليًّا.[٣٠] وعليه، فإنَّ الزبونية تعد من سمات السياسة والسياسيين في المجتمعات النامية، حيث إنَّ تبعية شخص قد لا تكون لها علاقة بالقربى أحيانًا، ولكنها ترتكز على تبادل المنافع بين موقعين غير متوازيين، من حيث الموارد وتشبه علاقة صاحب العمل بالزبون.

وطالما أنَّ الزبونية السياسية علاقة قائمة على المصلحة بين من يدفع ماليًّا، ومن ينتفع سياسيًّا ومن يحترف إعلاميًّا؛ لذلك يبدو واضحًا أنَّ الزبونية تعد أحد ملامح الاختلال والفساد في أداء الأحزاب السياسية، ويمثل تشوهات في الثقافة السياسية العراقية، والتي تسمح بالارتداد عنِ التحول الديمقراطي السليم، كما يعد الفساد بأشكاله المختلفة والفساد المالي بصفة خاصة، هو العمود الفقري لإدامة الزبونية، وقد مرت الديمقراطية – كنظام سياسي – بثلاث عصور حتى وصلت إلى وضعها المعاصر، وهي: عصر ديمقراطية الأعيان أو النخب، ثم عصر ديمقراطية الأحزاب أو التنظيمات السياسية، تبع ذلك عصر ديمقراطية الجمهور، والذي يوصف بأنَّ النخب فيه لم تعد نخب أعيان، ولا نخب ذات موهبة تنظيمية وتفانٍ في العمل السياسي، إنما هي نخب الجمهور والاتصالات القادرة على نقل وتوصيل رسائل ما إلى المجتمع، وجعل الجمهور أو أفراد المجتمع يستقبلونها بحرية، وأنَّ هذه النخب تظهر قدر أكبر من حرية العمل عما كانت تتمتع به سابقاتها، وأصبح البرنامج السياسي أقل دقة وحل محله توجهات عامة، وأنَّ الاختلافات في الرأي أصبحت تعني انقسامات، والجدل السياسي لم يعد محصورًا داخل البرلمان أو الأحزاب، وإنما امتد إلى وسائل الإعلام.[٣١] والمشهد الاجتماعي والسياسي يشير إلى أنَّ هذا العصر المنتج لمتخصصين في الإعلام ليس عليهم أي مسئولية قانونية، فهؤلاء كأفراد أو مؤسسات يمثلون الزبونية السياسية والاقتصادية وقوامها المنفعة، وقد

---

[٣٠] أحمد عبد الله ناهي، المشهد الديمقراطي بعد التغيير، جدل التأصيل والدراسة، مجلة قضايا سياسية، جامعة النهرين، كلية العلوم السياسية، ع ١٢، العراق، ٢٠٠٧. ص ١٦.

[٣١] سارة بن نفيسة & علاء الدين فرحات، الانتخابات والزبائنية السياسية في مصر – تجديد الوسطاء وعودة الناخب، مرجع سابق، ص ٢٩.

تشكلت تحت مسمى القضاء على الدكتاتورية، فأعادت إنتاج الناخب وفق تصوراتها، فالإعلام بأشكاله المختلفة، المتمثلة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات من قنواتٍ فضائية، وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، ودورها في تعبئة الرأي العام والجماهير عبر محركات البحث المختلفة مثل (yahoo & google)، ومواقع التواصل الاجتماعي مثل (facebook & twiter)، عامل أساسي في تمدد الزبائنية وتمركزها، فوسائل الإعلام هذه تجعل المتابع لها بكل أنماطه من رجل الشارع إلى المثقف إلى الباحث إلى المحلل السياسي زبونًا دائمًا لهذه القنوات التي تروج لسياسات أحزاب، وزعماء لهذه الأحزاب أو أشخاص ممولين، أو داعمين للقنوات الفضائية أو المواقع الإلكترونية.

وقد وصفها أحد الباحثين: "تشبه الشبكة الاجتماعية من الناحية البيانية التخطيطية، دائرة اتصالية تحدد هذه الدائرة كيفية تواصل بعض الأشخاص بطريقةٍ ما، وتكون الرسائل داخل هذه الشبكة عبارة عن صفقات بين أفراد خاصين، مشيرًا إلى المعلوماتية والاتصال كوسائل أساسية في عمل الزبونيات".[٣٢]

وليس أدل على إعادة إنتاج الناخب العراقي التقليدي إلا انتخابات ٢٠١٠ التي أكدت النخب السياسية نفسها التي عرضت على المجتمع العراقي في انتخابات ٢٠٠٥، رغم الانقسامات التي شطرت الأحزاب فتوالدت فقامت بمعالجتها عن طريق المكاتب الإعلامية لكل شق أو شطر، وانتشرت مواقع الشبكات الإلكترونية وصفحات التواصل الاجتماعية، وتكون لكل جماعة منشطرة وغير منشطرة، فريق إعلامي يدعمه وتوزع عليهم المنافع فيما بعد؛ مما يؤشر وجود نمط زبائني حديث ومعاصر.

المطلب الثالث: تعبيرات نمط الأداء السياسي وفقًا لمفهوم الزبائنيَّة

بشكل عام تم تعريف الزبونية على أنَّها عملية توزيع الموارد والنفاذ إلى مصادر السلطة الرمزية (الدولة، الدين، وما إلى ذلك من مسببات السلطة)، والتي تتمثل في تعبيرات

---

[٣٢] أوليفيه روا، الزبائنية والمجموعات المتضامنة: هل هم من بقايا الماضي أم يشهدون نشأةً جديدةً؟ مرجع سابق. ص ٣٦٣ – ٣٧٨.

نمط الأداء السياسي (غير المؤسسية)، والتي تظهر من خلال آلية مستندة إلى الولاءات الشخصية، التي يتم نسجها عبر المؤسسات القائمة، فهذه الآلية ليست بمؤسسية في حد ذاتها، كما أنَّها ليست حكرًا على أبناء قبيلة أو طائفة بعينها، وبتعبير مختصر، فأفضل ما يقال للتعبير عن الزبونية هو (خذ من هناك وأعط هنا). وعلى صعيد الطبيعة العالمية للزبونية تظهر تعبيرات نمط الأداء السياسي (العينية الشكلية الظاهرة)، حيث يبرز مفهوم (الشبكة الاجتماعية) كقاعدة تبنى عليها العلاقات بين (الأصدقاء السياسيين). وتشبه الشبكة الاجتماعية منَ الناحية البيانية التخطيطية دائرة اتصالية، تحدد هذه الدائرة كيفية تواصل بعض الأشخاص بطريقة معقدة، ولكن دون ذكر كيف يجب أن يتواصلوا، وتكون الرسائل داخل هذه الشبكة عبارة عن صفقات بين أفراد خاصين)، وهنا تعد وسائل العولمة المتطورة عاملًا أساسيًّا في تمدد الزبونية، وتمركزها خصوصًا عبر وسائل الإعلام التي تجعل من هذا المثقف أو المحلل السياسي زبونًا دائمًا لهذه القناة التي تروج لسياسات الدول، أو الأشخاص الداعمين لهذا الموقع الإلكتروني أو تلك القناة الفضائية.[٣٣]

وفي العراق لعب امتلاك عدد لا يستهان به منَ السياسيين الفاعلين لجنسيات أجنبية دورًا في الظهور ضمن شبكات اجتماعية خارجية، ساهمت في استزلام السوق العراقية للبضاعة الأجنبية الرديئة، وإهمال التطوير الصناعي والزراعي، كذلك التصدي في البرلمان لقانون (التعرفة الجمركية)، وبروز قضية (التمويل الأجنبي) كحاجز منيع أمام محاولات سن قانون ينظم شرعية عمل الأحزاب السياسية، وبخصوص الفساد المستشري، فقد تأسست أكبر عملية للسرقة في العراق إبان توزير حازم الشعلان للدفاع عام ٢٠٠٤ على زبونية مباشرة بين المسؤول الأول عنِ العقود في الوزارة وجمهورية بولندا التي يحمل هذا المسئول جنسيتها، والذي جاء بتعيين منَ السلطة

[٣٣] صلاح حسن الموسوي، الزبونية السياسية في العراق، مرجع سابق. ص ٤.

الأمريكية المحتلة؛ لتثبيت زبونية العراق لأسلحة دول أوروبا الشرقية المنضوية في حلف (الناتو) (*).

وتوجد أوضح مظاهر الزبونية السياسية في دول العالم الثالث، في النشاط الانتخابي، من خلال سطوة الرئيس على الأعضاء الحكوميين والحزبيين، حيث يتحول جهد هؤلاء لإرضاء ما يعتقدونه وليًّا لصعودهم السياسي على حساب الخدمة العامة، وهنا تتمظهر الزبونية بصورة مركبة حيث يتحول (الوكيل) إلى زبون، فبشكل عام تقوم العلاقة الزبونية على وجود الزبون (الزليم) والوكيل (المعزَّب) حيث يقدَّم الزليم المساندة والدعم غير المشروطين لمعزَّب يستفيد من المساندة والدعم المذكورين للترقي، وتوسيع مجال السلطة والفعل، ويوفر بالمقابل خدمة لزليمه التابع له لكنها عادة ما تكون أقلَّ قيمة من الخدمة التي حصل عليها، وتتمثل في بعض حظوظ الصعود في السلم السياسي، ومقارنة بين الصيغة الزبونية السائدة في النظم السياسية لدول العالم الثالث ونظيراتها في العالم المتقدم، تقترب الأولى منَ طابع (المافيا أو جماعات حرب) في حين تتخذ في الغرب هيئة (لوبي أو جماعة الضغط)[٣٤] ذكر هامش توضيحي عنهما والفرق بينهما، وتظهر الطائفية والعشائرية والأبوية والتبعية والطفيلية والفساد في المحتوى الزبوني الاستبدادي في العالم الثالث، بالمقابل تعبِّر اللوبيات في الغرب الديمقراطي (عنِ الشبكة الكبيرة منَ العلاقات السياسية والاقتصادية والبيروقراطية المتماسكة بينَ السلطات الثلاث "التنفيذية والتشريعية والقضائية" من جهة، وكبار المقاولين والمتعهدين وممثلي الشركات النفطيَّة من جهة أخرى، عبر تبادل الخدمات والخبرات والمعلومات والصفقات والتعاقدات، ويقف خلف هذه العلاقات عدد كبير منَ الخبراء والباحثين الذين يعملون في مراكز

(*) منظمة حلف شمال الأطلسي ويُعرف اختصاراً الناتو، بالفرنسية اختصاراً، هي منظمة تأسست عام ١٩٤٩ بناءً على معاهدة شمال الأطلسي التي تم التوقيع عليها في واشنطن في ٤ ابريل سنة ١٩٤٩. يشكل الناتو نظاما للدفاع الجماعي تنفق فيه الدول الأعضاء على الدفاع المتبادل رداً على أي هجوم من قبل أطراف خارجية.

[٣٤] هي جماعة من الاشخاص تربطهم علاقات اجتماعية خاصة ذات صفة دائمة او مؤقتة ، بحيث تفرض على اعضائها نمطا معينا من السلوك الجماعي، وقد يجتمعوا على اساس وجود هدف مشترك او مصلحة مشتركة بينهم يدافعون عنها ، بالوسائل المتيسرة لهم . يراجع : صادق الاسود ، علم الاجتماع السياسي ، مكتبة الوطنية ، بغداد ، ١٩٨٦ . ص ٣٥٥ .

وبحوث ودراسات متعددة، كما يتميز اللوبي بعلاقات وطيدة مع وسائل الإعلام والقوى والمراكز الاقتصادية والمالية في العالم، والجماعات الضاغطة، وهي ظاهرة ناتجة عن عصر الاحتكارات الرأسمالية والشركات متعدية الجنسية، والنزوع إلى السيطرة والخصخصة).[٣٥]

المبحث الثالث: الزبونية في العملية السياسية في العراق

بالرغم من الجزم بأنَّ الزبونيةَ تعد معطى فساد عالمي لا يقتصر على منطقة دون أخرى، إلا أنه عند التعرض لبعض مظاهرها المحلية في المحيط الحضاري بوجه عام، أو القطري بصفة خاصة، وذلك قبل ربطها بالسياسة الدولية، وطبيعة شبكات الزبونية ببعديها الاجتماعي والسياسي في الدول العربية – ومنها العراق– ذات طبيعة قوية بالدولة وعمودها الفقري، وذلك من خلال المؤسسات العسكرية والأمنية من جهة وبالعصبيات التقليدية العائلية، والمناطقية، واللغوية، والدينية، وغيرها من جهة أخرى، والعلاقات الدولية من جهة ثالثة، وفي المشرق تغلب الزبونية العائلية للأسر المالكة والزبونية الطائفية والعرقية والدينية لبعض الأحزاب الحاكمة، والتي تطور بها توريث الحكم، وتكون من خلالها ارتباطات إقليمية ودولية.[٣٦]

وكان مصطلح (الزبونية السياسية) بعيدًا عن توصيف المشهد السياسي العراقي، مقابل توصيفات أخرى (المحاصصة) و(التبعية) و(الـــفساد)، التي شاعت في الأدبيات السياسية العراقية، هذه المصطلحات لم تؤت ثمارها، بالرغم من كثرة الخوض فيها من قبل الناقدين للنظام السياسي الجديد، في زحزحة العراق من موقعة كدولة يشيع فيها الفساد، ويعاني من هشاشة السيادة الوطنية والانكشاف الواضح للتدخلات والأطماع الدولية والإقليمية.[٣٧] ومن جهتها حافظت البنى القرابية والطائفية على صلابتها وقوتها

---

[٣٥] سلام إبراهيم عطوف، مدخل عصري لتحليل بنى الفساد المركبة في العراق / القسم الأول، مجلة الحوار المتمدن، أغسطس ٢٤، ٢٠١٢. ص ٢.

[٣٦] محمد عبد الباقي الهرماسي، المجتمع والدولة في المغرب العربي، مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، محور المجتمع والدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧. ص ٩٩.

[٣٧] صلاح حسن الموسوي، الزبونية السياسية في العراق، مرجع سابق. ص ٤.

في تصدير الطبقة السياسية إلى الحكومة والبرلمان، وتهميش دور الكفاءات المستقلة في الإسهام ببناء الحكم الرشيد، ويعود الغياب في التشخيص لأهمية آلية (الزبونية السياسية) في تحليل المشهد العراقي الراهن إلى التشوهات في الثقافة السياسية العراقية بسبب التخريب الممنهج من قبل النظام البائد، وحرصه على قطع الصلة بين هذه الثقافة وعلوم هامة كعلم الاجتماع وعلم النفس والجدل الفلسفي، إضافة إلى انشغال المثقفين، والمحللين السياسيين العراقيين بظاهر القوة للطائفة والعشيرة في العملية السياسية، وعدم التركيز على عامل (المال) الذي يعد أوكسجين الزبونية السياسية، والذي حرصت الولايات المتحدة على اعتماده في توحيد الطبقة السياسية العراقية عبر نظام الرواتب العالية للمسئولين، وموارية باب الفساد المالي والإداري للسماح لهؤلاء في جني الأموال وتوحيد المصلحة بين المسئولين، والقادة المنقسمين عموديًّا على أساس طائفي وعرقي.

المطلب الأول: عامل القرابة وممارسة الفعل الاجتماعي والسياسي في العراق

كما هو معروف تنشأ الزبونية، عندما يعين السياسيون في مواقع القطاع العام، أحد الأصدقاء والأفراد الذين ساعدوا أو يساعدون أولئك السياسيين، بغض النظر عن مؤهلات المقربين أو مدى ملاءمتهم لتلك المواقف، ومن ثم، فإنَّ الزبونية تقابل الإنفاق على الموارد العامة لدفع فوائد (سياسية أو غيرها) التي يتمتع بها السياسيون فقط، حتى وإن كانت قد تعزز سوء الإدارة والمزيد منَ الهدر، هذا سوف يشمل عادة التمييز من الناس أكثر ملاءمة لتلك الوظائف.[٣٨]

هناك نوعان منَ العوامل في نموذج الزبونية، هما: السياسيون (إما في السلطة أو في المعارضة) والمقربين، فالسياسيون يهتمون بالحصول على السلطة أو الاحتفاظ بها، وهذه العملية عادة ما يتم تسهيلها من خلال المحاباة التي يقدمها المحبون، على الرغم من أنَّ المقربين يمكن أن يكونوا مساعدين في مجالات أخرى غير سياسية، وتتخذ ممارسات الفعل الاجتماعي والسياسي أشكالًا متعددةً، بما في ذلك الحملات والأنشطة الشعبية

[38] (Akhmedov, A. & Zhuravskaya, E. , Opportunistic political cycles: Test in a young democracy setting' , Quarterly Journal of Economics 119 (4) , (2004),. p. 1301–1338. .

والتبرعات، والأعمال الإعلامية (لصالح السياسيين أو ضد خصومها)، والمصالح الشخصية.[٣٩]

ومن جهة أخرى، يركز المقربون، على التعيينات في القطاع العام (بما في ذلك الشركات المملوكة للدولة)، والتي ستكون ذات قيمة بالنسبة للأصدقاء، حيث إنَّها تنطوي على الإيجارات، ويعتمد حجم الإيجارات على الوظيفة المحددة للخطر، ولكنها تستتبع عمومًا مجموعة من الأجور الأعلى، واستقرار الوظائف، والجهد الأقل، والميزانيات التقديرية، وما إلى ذلك. وبالطبع، هذه التعيينات الزبونية يمكن أنْ تتمَّ فقط من قبل السياسيين في السلطة؛ مما يعني أنَّ المقربين الذين يساعدون السياسيين في المعارضة، سوف يرون جهودهم تؤتي ثمارها فقط إذا تمَّ انتخاب السياسيين الذين تدعمهم تلك المقربات في الانتخابات القادمة، وعلى ذلك، يتم تقسيم السوق بين الوظائف الحالية والمستقبلية بعد الانتخابات، ويخلق هذا التفاعل بين السياسيين والمقربين سوقًا غير رسمية للتعيينات في القطاع العام.[٤٠]

- مكانة العصبية كأحد أشكال التضامن.

يعد كل منَ القبلية والعشائرية من أهم مضامين العصبية، التي تمثل أحد أشكال التضامن في المجتمع السياسي والاجتماعي، وتعرف القبيلة في اللغة هي «الجماعة منَ الناس تنسب إلى أَب أو جد واحدٍ، ومن الحَيَوان أو النبات الصنف».[٤١] أمَّا العشيرة، فعشيرة الرجل هي «بنو أبيه الأقربون، وقبيلته».[٤٢] وتتكون القبيلة من مجموعة من العشائر، ويستخدم مصطلحي القبيلة والعشيرة كمترادفين مع الإقرار بخضوع رؤساء العشائر لشيخ القبيلة، وكبر حجم القبيلة عن العشيرة وتفرعها وتشعبها، فإنه غالبًا ما توصف معه القبيلة بأنها عشيرة موسعة.[٤٣] فالقبيلة تتكون من عشائر.

---

(39) Bertrand, M., Kramarz , F., Schoar, A. & Thesmar, D. , Politicians, firms and the political business cycle: Evidence from France, CREST mimeo , (2007). p. 2.

(40) Martins, Pedro S. , Cronyism , IZA Discussion , Paper No. 5349 , November 2010. P. 1 – 46. Available at SSRN: https://ssrn.com/abstract=1720331.

(٤١) مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٩. ص ٤٨٩.

(٤٢) المرجع السابق، ص ٤١٩.

(٤٣) كريم جاسم الجزائري، أصول القبائل العراقية، مطبعة النور، بغداد، ٢٠١١. ص ١٩.

وبالنسبة للدور الذي تقوم به القبيلة في الحياة السياسية العراقية عمومًا، فيمكن التمييز بين تيارين من التحليلات: التيار الأول، يرى في شيوخ القبائل على مر العصور أصحاب مصالح خاصة، ويؤيدون السلطة المركزية أيما كانت هذه السلطة سعيًا للاحتفاظ بمكانتهم ودعم الدولة لهم؛ لذلك اعتبرت القبيلة معوقًا للممارسة الديمقراطية في النصف الأول من القرن العشرين، عبر انحيازها لاتجاهات سياسية بعينها أو إشعال الأزمات والاضطرابات بين الحين والآخر. [٤٤] ففي العراق الحديث، في عشرينيات القرن العشرين، عمل البريطانيون على موازنة سلطات الملك من خلال دعم القبائل في حالة التخوف من تزايد نفوذ الملك أو انتهاجه خطًّا يخالف مصالحهم، وكانت تستغل الانقسامات العشائرية أيضًا؛ لتمنع أي خلل لمصلحة شيخ أو آغا.[٤٥] وحينما تثور الخلافات، وينشأ صراع بين العشائر كانت السلطة تتدخل لمصلحة الموالين لها بغض النظر عن انتمائهم العرقي أو المذهبي، وهو ما يبرره من ضرورات السلطة وواجباتها؛ حيث قد يكون حلفاؤها مختلفين عنها عرقيًّا ومذهبيًّا، ويكون المعارضون لها من نفس عرقيتها ومذهبها، وتعد معظم الأحزاب السياسية –تبعًا لهذا التيار– هي انعكاس للدكتاتورية السائدة في النظام السياسي والسلطة المركزية، وكذلك في البنية المجتمعية ممثلة بالقبيلة؛ إذ غالبًا ما تكون هذه الأحزاب عائلية، يتم توارث قيادتها داخل الأسرة الواحدة، ومن ثمَّ فإنَّ التدخل الخارجي – تبعًا لهذا التيار – كان هو الحل الوحيد لإسقاط نظام صدام حسين؛ حيث لا يمكن لأحزاب على هذه الشاكلة أن تقيمَ ديمقراطية حقيقية. [٤٦]

---

[٤٤] عبد العزيز الحيص، القبيلة والديمقراطية: حالة العراق الملكي في الفترة (١٩٢١–١٩٥٨)، سلسلة دراسات وأوراق بحثية (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات)، الدوحة، حزيران / يونيو ٢٠١١. ص ٢.

[٤٥] صلاح البكري، القبيلة في العراق: ديناميَّاتها ودورها السياسي: مقدمة لمشروع دراسة القبيلة في العراق، المستقبل العربي، السنة ٣٢، العدد ٣٦٣ (أيار / مايو ٢٠٠٩). ص٩١–٩٢.

[٤٦] إياد جمال الدين، ٤ سنوات مضت على احتلال العراق، العربية نت، برنامج بانوراما، ١٩ آذار / مارس ٢٠٠٧.

وفيما يتعلق بالتيار الثاني، فهو يعلي مكانة القبائل والعشائر ودورها في الحياة السياسية العراقية على مر العصور، ويستشهد على ذلك بما قامت به تلك العشائر في عام ١٩٢١، وفي الثلاثينيات من القرن العشرين، حينما تظاهرت في الرميثة، والفرات الأوسط للمطالبة بالعدالة الاجتماعية، وبإجراء انتخابات حرة.[٤٧] هو ما كان له دور هام في خلق الاتزان الاجتماعي في مواجهة «الأيديولوجيات المطلقة». أو حفاظها على الوحدة والتجانس الثقافي للمجتمع بوصفها آلية للضبط الاجتماعي.[٤٨] بل إن هناك من يضفي على شيوخ العشائر مكانة أسمى من رجال السياسة؛ لأن وضعهم الاجتماعي دائمٌ ومستقرٌّ.

- القيم والنماذج المغايرة للهيكلية القبلية بعد الاستقلال.

من التعريف القبلية، نجد أنَّها نظم اجتماعية تؤطر لسلوك الأفراد المنتمين إليها، كما أنَّ كونَ أغلبية هذه العشائر مختلطة ينفي عنها الطائفية، ويحول دون تحولها إلى ميليشيات.[٤٩] ولقد استطاعت القبيلة في العراق –حتى منتصف القرن التاسع عشر من الميلاد– أنْ تحافظَ على بناها القديمة، وبدت القبائل الكبرى كما لو كانت دولًا مصغرة ذات قيادة أبوية تسيطر عادة عليها العائلات المحاربة، وتمتلك قواتها الخاصة وقانونها العرفي، وتقاليدها وإقليمها الخاص.[٥٠] ويزيد عدد قبائل العراق على المئة وبعضها يقارب عدد أعضائه ربع مليون شخص، ولا يشترط فيهم وحدة المذهب الديني، فقبيلة مثل الجبور على سبيل المثال تضم عشائر شيعية بالجنوب وأخرى سنية بالشمال، يدير الشئون السياسية للقبائل شيوخها الذين نجحوا إلى حد ما في عصر ما بعد صدام أنْ يستعيدوا السيطرة على أقاليم كانت قد هيمنت عليها الجماعات المسلحة

---

[٤٧] صباح ياسين، في ظل الاحتلال الأمريكي: العشائر العراقية: ثقل الحضور ومخطط الاحتواء، المستقبل العربي، السنة ٢٦، العدد ٣٠٢، نيسان / أبريل ٢٠٠٤. ص٢٣.

[٤٨] عبد العزيز الحيص، القبيلة والديمقراطية: حالة العراق الملكي في الفترة (١٩٢١–١٩٥٨)، مرجع سابق، ص ١٥.

[٤٩] فالح الفياض، مستقبل صحوة العشائر في العراق، العربية نت، برنامج بانوراما، ٢٢ كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٧.

[50] Lin Todd,et. al., Iraq Tribal Study - Al-Anbar Governorate: The Albu Fahd Tribe ,The Albu Mahad Tribe , and the Albu Issa Tribe, Global Resources Group Conducted under Contract with the U.S. ,Department of Defense, 18 June 2006. pp. 2 - 44..

مما أعاد قدرًا من الهدوء للعراق، وفي ظل ضعف الأحزاب العراقية تحول العديد من السياسيين للتحالف مع القبائل.[٥١] خاصة وأنَّ القوى المتناحرة في الانتخابات تعيش أزمة بنيوية، تنظيمية وفكرية وسياسية وقيادية بدرجاتٍ متفاوتة؛ لذلك هي تعمل على توفير زبائن من خلال الاستزلام وشراء الولاءات، وتعزيز الانتماءات العضوية، وليس التعبئة السياسية، ولعل هذا ما يفسره قدرة الأحزاب الطائفية (سنية أو شيعية) كحركة دينية، وحركة اجتماعية على استقطاب واستزلام أعداد كبيرة من نفس الكتلة كناخبين ولاعبين في العملية الانتخابية، بينما فشلت قوى أخرى في كسب التأييد بنفس المستوى بسبب إفلاس مشروعها السياسي، فحسب ماليونفسكي [٥٢] أن التقابل بين ثقافتين (علمانية ودينية على سبيل المثال)، إمَّا أن يتعاونوا أو يتصارعوا أو يتراضوا، وهم في حالة أسماها التوازن المتوتر.[٥٣]

المطلب الثاني: التحليل السيسولوجي للزبائنية في العراق

من الواضح أنَّ ظاهرة تشويه الناخب العراقي مستمرة من خلال التشويه المستمر للفكر الديمقراطي في العراق الذي أنتج ناخبين تقليديين يعبرون عن إنسانٍ مقيدٍ، محدوديته الفكرية هي فضيلته، هذا التجمع بنظر المرشحين مثاليًّا وهو موجود في الانتخابات العراقية منذ عام ٢٠٠٥، حيث يبقى الناخب مغتربًا عن المعنى الانتخابي ودوره وثقله كناخب، مزدوجًا ليس له ولا لحياته ميزة سوى الفوضى والانهيار بكل أشكالها، ومن ناحية أخرى يفتخر بانتصار طائفته أو عرقه أو عشيرته حد المبالغة التي يصمت أمامها العقل خوفًا منَ الامتداد الأبدي لفكره المشوه، وقد ذكر باريتو في نظريته عن الرواسب مستخلص لفكرة «المصلحة الذاتية»[٥٤] معتبرًا إياها إحدى

---

(51) Economist , Iraq's Tribes as Potent as Ever , (20 May 2010). .

٥٢) برونيسلاف كاسبر مالينوفسكي (٧ نيسان ١٨٨٤– ١٦ أيار ١٩٤٢)، كان عالماً بولندياً مختصاً في علم الإنسان ويعد من أهم علماء الإنسان في القرن العشرين، وهو من أهم الرواد في علم الإنسان التطبيقي.

(٥٣) علي ليلة، النظرية الوظيفية في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الرواد والقضايا، مرجع سابق، ص ٩٠.

٥٤) لقد أكد باريتو على الدور الفاعل الذي تلعبه الرواسب في السلوك الاجتماعي والعلاقات الإنسانية ويجب توضيح أهمية الرواسب في النظرية الاجتماعية والاقتصادية عند باريتو ، حيث يصنف باريتو الرواسب إلى ستة أقسام :–

- التجمعات البشرية وما تنطوي عليها من طرق وتفاعلات .

النزعات البشرية نحو إشباع حاجات معينة، وهي أشبه بالغرائز الحيوانية، والمصلحة هنا هي تعبير عن إدراك الفرد (المرشح) لهدف معين وسعيه من أجل تحقيقه؛ لأنه يعتقد أنَّ العامة من الناس لا قدرة لهم على التفكير المنطقي المنظم؛ لذا فالمرشح غالبًا ما يستغل هذه الفكرة لصالحه[٥٥] .

هذا الشعور بالانتصار البدائي، أصبح معه انتماء الناخب العراقي إلى الطائفة، أو العشيرة أو القومية سببًا لتضييق العمل الحزبي الحقيقي المبرمج، مقابل تكوين شبكة علاقات ومصالح وارتهانات زبونية، أو هي شبكة استبدال وتعويض استبدال الناخب السياسي الحقيقي، وتعويضه بناخب تقليدي صوري، وبعد أنْ طغت الطبيعة الزبائنية على سلوك الانتخابات العراقية لارتباطها بالزعيم والعمل من أجله، بمعنى اختصار ما يمكن اختصاره بشخصه، فإنها انحراف عن العلاقة بحزب والتحول إلى علاقة بشخص بل أصبحت الأحزاب تعرف برؤسائها[٥٦]، وتتحول الزعامة إلى سلطة يخضع لها الناخب ويرتضيها؛ لأنها تحقق مصالحه، وبذلك يتم استزلامه، وتتحول الدولة إلى مجموعة دويلات حزبية متناحرة.

- استمرارية التجمعات وما تحملها من أفكار غير ناضجة .
- التعبير عن العواطف بواسطة نماذج سلوكية خارجية .
- البديهيات التي تعبر عن ذاتها بالمشاركة المتبادلة بين الأفراد والجماعات .
- حرية الفرد وكرامته وقدرته في الحفاظ على ممتلكاته .
- رواسب الغريزة الجنسية .

علما إن الرواسب هذه هي الدوافع الحقيقية للسلوك الإنساني سواء كان هذا السلوك اقتصادي أو اجتماعي، ولكن باريتو يعتقد إن الرواسب غالبا ما تتعلق بالمشتقات . والمشتقات:– هي التبريرات العقلانية والمسوغات الفكرية للسلوك الاجتماعي أو الاقتصادي ، تستند المشتقات على الرواسب ، فالرواسب هي قاعدة السلوك ومنطلقه الحقيقي . وتعد المشتقات هي الوسيلة التي تبرر السلوك الإنساني وتدعم شرعيته بحيث يكون مقبولا ومتوافقا مع حقيقة العالم الخارجي .يراجع : على ليلة ، النظرية الاجتماعية وقضايا المجتمع، الكتاب الثاني، المجلد ٢ ،كتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ٢٠١٥ . ص ٣٤ – ٣٦ .

[٥٥] كامل عبد المالك، ثقافة التنمية – دراسة في أثر الرواسب الثقافية على التنمية المستدامة، دار مصر المحروسة، ٢٠٠٧. ص ٣٠.

[٥٦] أنطوان نصري مسرة، المواطنة والسلطة والعدالة في المجتمعات المتعددة، مجلة التسامح، وزارة الأوقاف والشئون الدينية، عمان، العدد ٢٠، السنة ٢٠٠٨. ص ٣٥.

- المحددات الاجتماعية والمؤسسية لصنع القرار.

ويرى (Bekker,1990) [٥٧] أنَّ الفساد يعد "إغراء [للمسئول العام] عن طريق اعتبارات غير لائقة لارتكاب مخالفة للواجب"، ومن ثم فهو سوء استخدام السلطة نتيجة لاعتبارات المكسب الشخصي، والتي لا تحتاج إلى أنْ تكونَ مالية "مما يرسي الصلة بين الفساد والزبونية". ليس هذا فقط، ربط Bekker أيضًا الفساد والزبونية بالتمييز، حيث إنَّ التمييز هو عكس "المفهوم الأساسي للحقوق الفردية، أن لكل شخص الحق في عدم التمييز ضده على أساس العرق أو بعض العوامل الأخرى، مثل اللون، أو الأصل القومي، أو الدين، أو الجنس، التي لا تؤثر على الجدارة الفردية". وعليه، فإنَّ الزبونية، باعتبارها محاباة بالمعنى الدقيق لأفراد العائلة أو بمعنى أوسع على أنَّها تفضيل "الأصدقاء" تعتبر بمثابة أداة طبيعية للتمييز ضد الآخرين الذين قد يتمتعون بميزة أكثر باعتبارهم أفراد العائلة أو الأصدقاء، كما أنه يؤدي إلى خلق ميزة غير عادلة للأشخاص المرتبطين بالسلطة (التي تتخذ أشكالًا مختلفة) كأحد الأقارب أو كصديق، يمكن أن تؤديَ الزبونية إلى اختلاس للموجودات القيمة، وصنع القرار بصورة غير مشروعة من خلال التنظيم الممنهج (مثل التأثير السلبي على معنويات الموظفين) و/ أو التأثيرات الخارجية مثل فقدان الأموال العامة / فقدان الثقة العامة أو بدء النزاعات الدولية.

المطلب الثالث: درجة شرعية التجربة القائمة في المشهد السياسي العراقي

يعد هذا الجزء من الدراسة بمثابة وصف وتحليل، ونقد لواقع استخدام شبكة العلاقات الاجتماعية للزبونية السياسية والاجتماعية في الانتخابات العراقية (٢٠١٤)، وفاعليتها في إعادة إنتاج ناخب عراقي تقليدي، في فكره السياسي، وفي المواقف والمشاعر والصراعات المرتبطة بها.[٥٨] وفي ضوء استمرار عملية تشويه الناخب العراقي وتشويه

---

[57] Bekker, J. , Nepotism , corruption and discrimination: a predicament for a post-apartheid South African public service , Politikon , 18 (2) , (1991). P. 55 - 73..

[٥٨] عبد الغني شفيق، النخب المحلية والعلاقات الزبونية: دراسة في بعض آليات إعادة إنتاج النفوذ بالمجال القروي المغربي، مرجع سابق. ص ١٤١–١٥٧.

الفكر الديمقراطي في العراق؛ اصبحت معادلة التفاضل في الخيارات ترتكز على توغل القوة في المعايير الاجتماعية التي تحكم العلاقة، وهذا يرتبط بدرجة وعي الأفراد بظروفهم والدافع وظيفيًّا إلى المحافظة على أوضاعهم القائمة، وهو ما يُسمى بـــ (سلبية الوعي) [٥٩] ، وهنا تتحدد القوة بقدرة أحد الفاعلين على فرض إرادته في علاقة معينة بموجب المصالح والمعايير الاجتماعية[٦٠]؛ لذا فإنَّ علاقات القوة بين الجماعات الاجتماعية وشبكات الزبائن والتضامنات، تظهر من خلال بروز عقليَّات التوحيد على أسس محلية وطائفية ومناطقية وقبلية بعيدًا عن المواطنة، وتصبح استراتيجيات التعبئة الانتخابية عبارة عن علاقات زبائنية، ونوع من الاتجار بالانتخابات مقابل توفير الحماية للناخب أو هكذا يعدون[٦١]، وهنا يتشكل الناخب وفقًا لمصالحه وحاجاته وجهة انتمائه التي تمثل معاييره الاجتماعية، ويتموضع ضمن ضدائد ثنائية جوهرية بنيوية هي السيطرة/ الخضوع، أو يوضع الناخب نفسه في مكانٍ ما بين (القوة الكامنة) و(القوة الظاهرة)، فالقوة لا تظهر إلا إذا ارتبطت بمصالح الآخرين.[٦٢] وعليه تكون المصلحة الركيزة الأساسية في بناء علاقة القوة، فصاحب القوة (المرشح) هو في موقع يمكنه من فرض إرادته؛ لأنه يتحكم بمصادر فيها مصالح وحاجات الطرف الخاضع (الناخب)، ومنَ الناحية الأخرى فإنَّ الخاضع (الناخب) يمارس الخضوع، وأحيانًا يضطر إلى التفنن في الخضوع لقاء المصلحة التي يجنيها منَ العلاقة رغم إدراكه أنَّ ما يحققه من مصالحٍ لا تمثل جميع ما يستحقه.[٦٣]

---

[٥٩] محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفة والصراع، دار مجدلاوي، ط ١، ٢٠٠٧. ص ٢٥٣.

[٦٠] المصدر السابق، ص ٢٥٦.

[61] www.montada.echoroukonline.com .

[٦٢] محمد عبد الكريم الحوراني، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفة والصراع، مرجع سابق. ص٢٥٣.

[٦٣] المرجع السابق، ص٢٥٥.

الخاتمة:

في الختام، يمكننا القول: إن .. النقاط الأساسية التي يجب أخذها في الاعتبار هي: أن للزبونية السياسية والاجتماعية انتشارًا واسعًا في القطاعين العام والخاص، على الصعيدين الوطني والدولي، على مستويات متعددة، مع وجود آثار وعواقب متعددة (إيجابية وسلبية على حد سواء، تعتمد على الزوايا والإطار الزمني قيد النظر). يعتبر التدقيق الداخلي والخارجي والمستقل بالإضافة إلى شفافية أكبر حول تنفيذ العملية على سبيل المثال، فيما يتعلق بالتوظيف والضوابط المتعلقة به، أمرًا حاسمًا للحد من الآثار السلبية للفساد، على سبيل المثال تلك المتعلقة بالزبونية، حيث إنَّ الزبونية ليست مجرد تأثير جانب واحد في شكل امتياز خاص كونها أحد أفراد العائلة، أو صديق مقرب لشخص ما في السلطة، الذي هو في موقع السلطة، يستلزم تحديد مستوى الظلم من مستوى السلطة التي تمارس لغرض الزبونية، وبغض النظر عن نوع المنظمة ومستوى القوة فيها، يجب تضمين سياسة "الاكتفاء بالإفصاح والشفافية" في سياسات مكان العمل، بحيث لا يواجه آخرون في المنظمة الخوف من العواقب، مثل فقدان وظائفهم، ناهيك عنِ الخوف من حدوث الفساد مثل: المحسوبية، وعليه فإنَّ معنى السلطة كما هو الحال عادة في موقع السلطة يجب أن يتغيرَ من خلال الحاجة إلى مزيد من الشفافية والمساءلة وتوزيع السلطة، وبالتالي التخفيف من أشكال القوة التقليدية.

كما أنَّ الزبونية كظاهرة سياسية لها جذر اجتماعي، تستدعي وسائل مكافحتها والتقليل من أضرارها، التغلب على مصادرها الاجتماعية، باعتبار الزبونية تنم عن إفراز لمسار كامل منَ التنشئة الاجتماعية التي تحاول أن تضفيَ المقبولية القانونية عليها، الأمر الذي يستدعي تغليب النمط العلائقي المدني والقانوني للدولة على حساب الأنماط القبلية والطائفية اللاعقلانية، وخلق الشعور الإيجابي لدى الفرد تجاه الدولة التي تؤدي الدور الحاسم في إدارة شؤونه، وفي العراق يعني النجاح في تحجيم الزبونية السياسية المنتشرة كالنار في الهشيم، ومنح الشرعية (المشكوك بها) للنظام السياسي الجديد عبر إعادة السلطة للشعب، وتسييس أمور الناس والدولة بعقلية مدنية تؤمن بفطنة هؤلاء

الناس ووعيهم، بدل واقع الحال، الذي أحكم فيه سير العملية السياسية وتوابعها الحيوية والاستراتيجية، في دائرة مفرغة أهمل به الرأي العام بشكل شبه تام، وبات الشغل الشاغل حفظ مصالح الطبقة الحاكمة عبر إدامة المحاصصة الطائفية، وانتهاك حياد القضاء وتسيس البنية القبلية، والالتفاف المستمر على استحقاقات المواطنين.

ملخص البحث

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على الزبونية كأحد أشكال الفساد السياسي والاجتماعي، التي تعاني منها العديد من دول العالم النامية والمتقدمة على حد سواء، والتي تستشري آثارها الفسادية بصورة يسهل ملاحظتها في الدول العربية –ومنها العراق– وبالتالي الوقوف على الآلية التي تتغلغل بها العلاقات الزبونية في النشاط السياسي، بما يبرز أنشطتها الفاسدة، ويحد من فاعلية العملية السياسية وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج، أهمها:

- أنَّ الزبونية كظاهرة سياسية لها جذور اجتماعية، تستدعي وسائل مكافحتها والتقليل من أضرارها، التغلب على مصادرها الاجتماعية، باعتبار الزبونية تنم عن إفراز لمسار كامل منَ التنشئة الاجتماعية التي تحاول أن تضفيَ المقبولية القانونية عليها، الأمر الذي يستدعي تغليب النمط العلائقي المدني والقانوني للدولة على حساب الأنماط القبلية والطائفية اللاعقلانية، وخلق الشعور الإيجابي لدى الفرد تجاه الدولة التي تؤدي الدور الحاسم في إدارة شؤونه.
- لقد نجح العراق في تحجيم الزبونية السياسية المنتشرة ، ومنح الشرعية للنظام السياسي الجديد عبر إعادة السلطة للشعب، وتسييس أمور الناس والدولة بعقلية مدنية تؤمن بفطنة هؤلاء الناس ووعيهم.

Abstract

This study aims to identify the Nepotism as one of the forms of political and social corruption, which is experienced by many countries in the developing and developed world alike, whose financial effects are pervasive in a way that is easy to observe in the Arab countries, such as Iraq, and thus to identify the mechanism Which nepotism use to penetrates Political activity , highlighting its corrupt activities, and limiting the effectiveness of the political process and economic and social development.

The study reached several results, the most important of which are:

- Nepotism as a political phenomenon with social roots, necessitates the means of combating it and minimizing its damage, overcoming its social sources, considering that the Nepotism is the secret part to a whole process of socialization that tries to give legal admissibility to it, and that requires giving priority to the civil and legal model of the state at the expense of Tribal and irrational patterns and the creation of a positive feeling in the individual towards the state that plays the decisive role in managing its affairs.
- Iraq has succeeded in curbing the widespread political fanaticism, granting legitimacy to the new political system by restoring power to the people, politicizing people's affairs and the state with a civic mentality that believes in the wisdom and awareness of these people.